« مقدمة تاريخ الاداب الانكليزية »

للفيلسوف « تين »

« فى وسع المؤرخ أن يتغلغل إلى صميم الروح الانسانى فى حقبة
« من الزمن أو فى قرون متطاولة أو لدى شعب بعينه . يستطيع أن
« يدرس جميع الحوادث وكل التطورات والانقلابات التى تجرى فى
« نفس الانسان و يصفها ويرويها . ومتى بلغ المؤرخ الغاية فى هذه السبيل
« اجتمع لديه تاريخ الحضارة عند الشعب وفى العصر الذى يختاره »
« عن جيزو » فى كتابه « حضارة أوربا » (١)

كان من أثر دراسة الآداب أن تغير وجه التاريخ فى المانيا من مائة عام، وفى فرنسا منذ خمسين عاماً . فقد ادت هذه الدراسة الى أن ثمرة التفكير الأدبى ليست من عبث الخيال ولاهى بدوة نابية صادرة عن رأس متأجج . انما هى صورة للعادات الشائعة ودليل حالة نفسية . وان من الممكن الاهتداء ببحث البدائع الادبية الى الطريقة التى شعر بها الناس وفكروا منذ عدة قرون . هذه القاعدة حين اختبرت كل اختبارها بالنجاح

ولما تأمل الباحثون تلك الضروب من الشعور والتفكير حكموا بأنها فى المقام الأول . ولوحظ أنها تتصل بأعظم الحوادث . وأنها سواء فسرت تلك الحوادث أو أن الحوادث فسرتها، فلا بد من أن يكون لها مقامها فى التاريخ وأن يكون أسمى مقام . ومنذ راعوها إلى هذا الحد تغير كل شىء فى التاريخ : الموضوع والطريقة والاداة وادراك السنن والعلل . ذلك التغير كما يجرى هو الذى نحاول أن نبسطه فيما يلى :

١ — ليست الوثائق التاريخية سوى أدلة تمثل الذات المنظورة

لا شك فى أن أول ما يلاحظه حين تقلب صفحات كتاب مطبوع أو اوراق مخطوطة عتيقة أو ديوان شعر أو مذهب انه لم يخلق من تلقاء نفسه . وانه رسم شيه بالصدفة الحفرية أو طابع على مثال تلك الآثار التي يتركها على الحجر حيوان عاش وفنى . وكما تحوى الصدفة حيوانا يحوى المستند فى طياته انساناً ومادمت لاتختبر الصدفة

وتفحصها إلالكى تعرف الحيوان ، كذلك لاينبغى أن تدرس المستند إلالكى تعرف الانسان. وما الصدفه والأنسان إلا رسوم ميتة لا تتجاوز أهميتها الدلالة على الكائن الكامل الحي . ذلك الكائن هو الغاية التى ينبغى الوصول إليها . هو الذى يهتم له ويعنى بتكوينه . ومن الخطأ دراسة المستند على أنه شيء مستقل منفرد . فانها طريقة الفقهاء فى دراسة الأشياء. ومن شأنها أن توقع فى ضلال المدرسين الذين يستمسكون بما تقول الكتب .

وليس هناك فى الجوهر ميثولوجيا ، كلا ولا لغات. وانما هناك الناس يوفقون الالفاظ والصور طبقاً لحاجات أعضائهم والتركيب الأول لادراكهم . فاية عقيدة ليست شيئا فى ذاتها . وانما المهم البحث فيمن وضعوها . كأن يكون صاحب دعوة دينية من رجال القرن السادس عشر أو صورة أسقف أو شهيد انكليزى . فلا وجود لشيء إلا بالشخص . فهو الذى تنبغى معرفته وأن النظر فى تسلسل العقائد أو طبقات الشعر أو ترقى الشرائع أو تطور اللغات لايخرج عن كونه تمهيداً لطريق البحث عن الشخص. ولا يظاهر التاريخ الحقيقى إلا متى بدأ المؤرخ يتعرف من خلال العصور الانسان الحى الفعال. بشهواته وعاداته وصوته وملامحه وحركاته وملابسه . ويبرز صورته مميزة كل التمييز عن غيرها . كاملة كتلك التى نراها كل يوم فى الطريق .

إذن يتعين علينا أن نبذل الجهد فى ض مسافة الزمن الطويلة التى تمنع عنا رؤية الانسان بأعيننا . لنجتهد فى أن نمحو بقدر الامكان تلك المراحل الزمنية التى تعوقنا عن رؤية الشخص شاعرا كان أو صاحب دعوة دينية أو مشرعاً . نرى ماالذى يتبدى لنا فى طيات الصفحات المصقولة لديوان شعر عصرى؟ يتبدى لنا شاعر عصرى . رجل مثل « الفريد دموسيه » او « هيجو » او « لامارتين » انتبى من عهد دراسته وجاب البلدان . يتبدى لنا فى بذلته السوداء وقفازه . ملحوظاً بعين الرضا من النساء . متجولا فى الليل يحيي هنا ، هناك خسين تحية . مخلفاً بين الناس اكثر من عبارة مستظرفة تؤثر عنه . نراه وهو يقرأ الصحف فى الصباح مقيما كالعادة فى الطابق الثانى . غير مسرور الا قليلا تحت تأثير اعصابه . بل لان الاستهانه باصحاب المقامات الرسمية فى الديموقراطية الغليظة التى تختنق فيها قد زادت فى طموحه حين نبتت به وبرفعت مركزه . ولأن ما طبع عليه من رقة الاحساس

قد استحث فيه الميل الى اعتقاد انها آله. هذا لعمرى ما تتبينه فى طيات « التأملات » و « الاغانى » الشعرية العصرية

وكذلك تتبين من خلف المآسى المؤلفة فى القرن السابع عشر شاعراً نظير « راسين » (٢) مثلا . شاعراً متطرفا متزمتاً تديناً ومحدثاً متفقاً تتبينه بشعره المستعار وحذائه المزين بالاشرطة. مخلصاً فى مذهبه الملكى وفى عقيدته المسيحية . منزها بنعمة الله عن كل ذنب يؤاخذ عليه، اينما كان سواء امام الملك او امام الكنيسة، متفنناً فى اضحاك الامير . ناقلا اليه بلغة فرنسية رقيقة ما كتبه « اميو » (٣) بلغة الغال (٤) مجلا كل الاجلال للكبراء. محتفظاً . بالايتجاوز مركزه . مبادراً عند أول اشارة، متحفظاً سواء أكان فى قصر « مارلى » (٥) او فى قصر « فرساى » اى وسط المباهج المنظمة التى اشتملت عليها طبيعة منسقة بعمبا الزخرف . وبين الخفاوات ووجوه الحسن وميادين الخيل وترف النبلاء المطرزى الأثواب الذين يتوافدون على البلاط عند الصبح لكى يستحقوا الانعام بوالسيدات الجنوس على مقعد بحضرة الملك . ولو اردت مزيداً فعليك ان تراجع مذكرات « سان سيمون » وتصاوير « بيريل » (٦) كما تراجع لتعرف عصرنا قصص « بازاك » وصور « اوجين لامن (٧) المائية .

وعلى هذا المنوال يكون اول مايجب ان نعنى بتحين نطلع على مأساة اغريقية ان تتصور الاغريق القدماء . اى الناس الذين عاشوا نصف عراة فى ميادين الرياضة او فى الميادين العامة تحت سماء مشرقة وامام ابدع وانبل المناظر الطبيعية، لا يهمهم الا العناية بجسومهم وتربيتها، على ان تكون مرنة وقوية. وقضاء الوقت فى السمر والمناقشة واعطاء الاصوات وتنفيذ الحيل لمصلحة الوطن . فى فراغ وفى قناعة من العيش كل ما يملك واحدهم من متاع ثلاثة مواعين فى داره ومن مؤن « انشوقتان » فى جرة من جرار الزيت . يتولى خدمتهم عبيد أرقاء يتركون لهم الحرية فى تهذيب عقولهم وتربية اعضائهم وتمرينها. لايشغلهم فى الحياة شاغل، الا أن تكون مدينتهم أجمل المدن وان تكون لهم اجمل المواكب واجل الافكار واحسن الرجال . ينبيك عنهم تمثالا نظير « ميلياجر » او « تيزيه » من تماثيل « البارثنون » هذا الى منظر البحر

الابيض المتوسط ذى الحبب المتلألىء و الزرقة الصافية مثل الصدار الحريرى . البحر الذى تبرز منه الجزر كالاجسام المرمرية . وثم عشرين عبارة منتخبة من « افلاطون » و « اريستوفان » (٨) ينيك ذلك عنهم اكثر من كل الابحاث و الشروح .

و كذلك اذا اردت ان تستمع سفراً من اسفار « البورانا » الهندية . عليك ان تبدأ بتصور رب الاسرة الهندى الذى حالما يرى طفلا على ركبتى ابيه يلجأ الى العزلة طبقا للشريعة حاملا معه بلطة و وعاء قابعاً تحت شجرة الموز التى يجرى من جوارها النهر ممسكا عن الكلام . مواظباً على الصوم ، تحيط به النيران الاربع والنار الخامسة من فوق : الشمس الرائعة المتوهجة والمحيية منقطعاً عن كل الكائنات الحية . مستغرقاً فى تصوره الاسابيع الطويلة فى تأمل قدم تبرهما ثم ركبته ثم فخذه ثم بطنه الى آخر اعضائه و لايزال فى هذا الاستغراق حتى يفضى به تأمله الدائم القوى الى فقدان الرشد . والى ان تختلط كل اجزاء تركيبه و يستحيل كل منها فى الآخر وتهز مع رأسه الذى يعتريه الغيوب . وحتى يطلع ذلك الانسان الجامد على النفس شاخص البصر على الكون ، يضمحل كالدخان من فوق عالم الفراغ الذى يبغى الفناء فيه . وفى هذا المعنى يكون السفر الى الهند من خير وجوه الاطلاع . وإن لم تتوفر الرحلة الى الهند يقوم مقامها روايات الذين رحلوا إليها وكتب الجغرافيا والنبات ، ما ألف فى اصل الشعب الهندى أى « إثنولوجية » .

وعلى كل حال فالبحث لا يتبدل فى غايته وإن تبدل فى الوسيلة فاية لغة أو تشريع أو وصايا دينية انما هى شىء مجرد . والشىء الكامل هو الانسان الفعال . الانسان بمجموع اعضائه . الانسان المنظور الذى يأكل ويمشى ويكافح ويعمل . ودع جانباً نظرية القوانين وكيفية سنها والاديان وقواعدها ، واجعل نصب عينيك الرجال تراهم فى معاملهم وفى مكاتبهم وحقولهم . تراهم بسمائهم وارضهم وبيوتهم وملابسهم وثقافتهم وطعامهم ، كفعلك حين تهبط انكلترا وايطاليا ، تنظر الى الوجوه والحركات والى الارصفة والحانات . والى الماشى على قدميه يتروض . والى العامل الذى يحتسى الخمر . وليكن اهتمامك كله منحصراً بقدر الامكان فى النظر الحاضر والملاحظة الشخصية المباشرة والمحسوسة . لانها الطريق الوحيدة المؤدية الى معرفة الانسان

لنجعل الماضى حاضراً . لأنه لاحكم على شيء ما لم يكن حاضراً . ولا تجربة فى اشياء غائبة . ولا شك فى أن هذا الانشاء يبقى على الدوام ناقصاً . ولا يمكن أن يساعد الاعلى اصدار احكام ناقصة . ولكن لا بد من الرضا به . فان بعض المعرفة خير من الجهل أو الضلال . وليست هناك وسيلة للوقوف على اعمال ما سلف ومعرفتها الا بالنظر عن قرب الى الرجال السالفين

هذه لعمرى الخطوة الاولى فى التاريخ . وقد ادركت هذه الحقيقة فى اوربا ايان النهضة الفكرية أى فى نهاية القرن الاخير . ادركها فى البدء اسبخ (٩) الالمانى و « والترسكوت » (١٠) الانكليزى . ومن بعدهما اتبع الطريق نفسها فى فرنسا شاتوبريان (١١) و « اوغستان تيرى » (١٢) و « مشليه » (١٣) وكثير غيرهم

أما وقد وضحنا فيما تقدم الخطوة الاولى فلنوضح لك الآن الخطوة الثانية :

٢ — الانسان المجسد المنظور ليس سوى اثر يستدل به على الانسان الداخلى غير المنظور

انت اذا لاحظت بعينيك الانسان المنظور فما الذى تنشده فيه ؟ تنشد ولا شك الانسان غير المنظور . فان ما يصل الى اذنيك من الالفاظ وما تبصره من الحركات وايماء الرأس والملابس والافعال وكل عمل محسوس ليس فى نظرك الا تعبيرات . وأشياء تنم عن روح . يعرب عن انسان داخلى ينطوى عليه الانسان الظاهر . وأن وظيفة الثانى أن يبدى الاول ويظهره . فانت ترى داره ومتاعه ولباسه لكى تستدل منها على آثار طبائعه وعاداته وميوله ومبلغ نظرفه أو ريفيه أو اسرافه أو اقتصاده وسخفه أو ذكائه وحذقه . وانت تصغى الى حديثه وتحفظ نبرات صوته فى تغيرها ومواقفه فى تبدلها ، لكى تحكم على حيويته أو تواكله . ومرحه أو شهامته أو تصلب رأيه . وانت انما تنظر فى كتاباته واعماله الفنية أو مشروعاته المالية أو السياسية لكى تقيس مدى ذكائه وحدوده وتدرك مبلغ ابتكاره ومقدار رباطة جأشه . وتطلع على القوة العادية لافكاره ونظامها ونوعها وطريقته فى التفكير وحل المسائل . وان كل هذه الظواهر ليست سوى طرائق تجتمع فى مركز وانما يكون سلوكك لها ابتغاء الوصول الى هذا المركز . اذ تعثر على الانسان الحقيقى . اعنى مجموع الملكات والعواطف التى هى كل ما فى الانسان واذ ينفتح امامك عالم جديد . عالم لانهائى . فان كل فعل منظور يجر من خلفه عدداً لانهائياً

من الادلة والتأثيرات والمشاعر التليدة أو الطريفة تعين على توضيحه . وهى اشبه بالصخور العظيمة التى تخرق الارض حتى تبلغ مداها . ذلك العالم غير المنظور الذى هو الموضوع الثاني يجب أن يكون غاية المؤرخ . ومتى كانت اداة النقد عنده كاملة فهو قدير على أن يستجلى من وراء كل حلية فى نقش هندسى فنى وتحت كل خط فى لوحة مصورة وخلف كل عبارة فى رسالة العاطفة الخاصة التى صدرت عنها الحلية أو العبارة أو الخط ، يستطيع أن يشهد الدراما الداخلية التى تقوم فى قلب الفنان أو الكاتب . ولا يرى فى اختيار الالفاظ ونوع الاستعارات ونغمة الشعر وترتيب البراهين إلا آثار وادلة . وبينما يتصفح بنظره الاصل المكتوب يتبع بروحه وفكره السير المستمر لانفعالات المؤلف وتأثراته فى تسلسلها وتطورها . وهى تلك الانفعالات والتأثرات التى صدر عنها الأصل . والمراد أن يستعين بقواعد علم النفس .

البقية فى العدد التالي

عبد الحميد سالم

---

(١) كتاب « حضارة أوروبا » للمؤرخ الفرنسى « جيزو » نقله الى اللغة العربية أحد أفاضل الادباء السوريين غير أن اسلوبه العربى لم يعد يتفق مع ذوق هذا العصر .

(٢) سانت بيف (١٨٠٤ — ١٨٦٩) شاعر وناقد فرنسى . ابتدأ حياته فى الانتاج الادبى باشعار لم تتفق مع ذوق عصره وانتهى بتآليف جليلة فى النقد . وهو يمثل العبقرية فى هذا الفن . وقد يكون ادنى فى باب العلم من « جوته » و« هيجل » إلا أنه يفوقهما فى دقة التحليل ونظره النافذ فى السيكولوجيا ومعرفته بالشخصيات التى كتب عنها ، وسلامة ذوقه . ولقد كان « سانت بيف » شديد الرغبة فى الاطلاع على حياة كل كاتب . يريد أن يعلم عنه مايعلمه الطبيب أو العراف . ويرى فى ذلك نوعا من المعلومات التى لابد منها للناقد . ولكنه كان يرى فى الوقت نفسه أنه كلما اقترب من التآليف كان أقرب إلى المؤلف .

(٣) جان باتيست راسين (١٦٣٩ — ١٦٩٩) من اكبر الشعراء المأساة الفرنسيين صاحب « اندروماك » (نقلها الى العربية اسحق اديب ، و« فيدر » (مصرها عثمان جلال) كان معاصراً للشاعر « كورنى » رب المأساة الفرنسية . وليس من

الممكن الموازنة بينهما من ناحية العبقرية الدرامية . فان راسين حين ازاد تقليد ورنى فى مأساة « الاسكندر » وفى « ميتريدات » لم يحسن التقليد . فقد خلق — كما قال عنه « كوزان » — ليكون مصوراً للعواطف القوية لا للابطال الاقوياء . وكل براعته منحصرة فى تصوير العشق واطواره ومن هنا استدلوا على أنه قد عالج الشهوات العنيفة لان حياته الخاصة مجهولة كل الجهل .

(٤) جاك أميو (١٥١٣ — ١٥٩٣) كان اسقفاً نقل الى اللغة الفرنسية القديمة « gaulois » كل تآليف « فلوطرخوس » واشتهر على الاخص بترجمته لكتاب « العظماء » . قال عنه راسين الذى اعتمده فى كثير من مآسيه « أرى فى اسلوبه الانسانى القديم ظرفا اعتقد انى عاجز عن مجاراته فيه بلغتنا العصريه ..

(٥) مارلى أو « مارلى لبروا » ناحية قريبة من فرساى كان للملك لويس الرابع عشر قصر بديع فيها وضع المهندس « مانسار » رسمه وكلفه بناؤه نفقات باهظة وأما فرساى فاشبه بالحمراء بالنسبة لملوك فرنسا .

(٦) آدم بيرريل مصور ونقاش فرنسى ولد سنة ١٦٢٨ ومات سنة ١٦٩٥ .

(٧) أوجين لامى مصور فرنسى امتاز بالابتكار والتفنن وبرع فى تخليد الحوادث التاريخية والمناظر البديعة فى لوحاته ولد سنة ١٨٠٠ ومات سنة ١٨٦٢ .

(٨) أريستوفان اشهر شعراء الاغريق الهزليين ولد فى اثينا حوالى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد هاجم بكوميدياته النظام الحكومى فى عصره والساسة وبقله وجعل الكوميديا قوة توازى قوة الصحف السياسية فى عصرنا .

(٩) دوق الدوق روسان سيمون كان من قواد فرنسا (١٦٠٧ — ١٦٩٣) خلف مذكرات قيمة تعد من بدائع الادب الفرنسى . وقد بدأها من عهد الملك لويس الرابع عشر الى الدوق دورليان نائب الملك لويس الخامس عشر القاصر أى من سنة ١٦٩٥ الى سنة ١٧٢٣ . ولما قام النزاع بين ورثته على امتلاكها سنة ١٦٩٣ استحوذت عليها الحكومة وعدتها من أوراقها وبقيت بين سجلات وزارة الخارجية الى سنة ١٨٣٠ حيث طبعت طبعة كاملة فى اربعين مجلداً .

(١٠) لسنج كاتب المانى جليل اثار الحركة التجديدية فى الادب الالمانى (١٧٢٩

— ١٧٨١) كافح الذوق الفرنسى الذى كان تأثيره يهدد باخماد كل ابتكار فى بلاده، وعمل على خلع نير التقليد الاعمى للمثل الفرنسية فى الادب ورسم بكتاباته لمن بعده نماذج بقيت ينبوع إلهام فى الادب الوطنى . وهذه هى المهمة الجليلة التى حققها « لسنج » .

(١١) السير والترسكوت من اشهر الرواتيين الانكليز من أصل ايقوسى ولد فى ادنبره سنة ١٨٣٢ ومات سنة ١٧٣٢ قال عنه أوغستان تيرى « أنه القى على تاريخ بلده نظرة اقوى وانفذ من نظر المؤرخين انفسهم » وقد جدد « سكوت » تاريخ وطنه واحياه . وكان مصوراً مبدعاً أحيى بصوره قصور ايقوسيا وحوادثها التاريخية ومعيشتها الريفية .

(١٢) شاتوبريان من ابلغ الناثرين الفرنسيين . كان فنانا ومصوراً ابلغ منه مفكراً. وهو صاحب « روح المسيحية » و« الشهداء » و« رينه » و « اتالا » و « آخر بنى سراج » . وأجل ما كتبه شاتوبريان كان وصفاً للانحاء التي شهدها وللشخصيات التى كتب عنها . (١٧٦٧ — ١٨٤٠) قال « لانسون » إن « أوغستان تيرى » صا مؤرخا حين قرأ الجزء الرابع من « الشهداء » ، ويعد شاتوبريان من اساطين الرومانتيسم فى فرنسا

(١٣) أوغستان تيرى (١٧٩٥—١٨٥٦) مؤرخ وفيلسوف تناول بالدرس تاريخ انكلترا من الغارة النورماندية فى القرن الحادى عشر الى موت شارل الاول وتاريخ فرنسا بطريقة هى طريقته التى أخذها عنه من بعده من المؤرخون .

(١٤) ميشيليه (١٧٩٨—١٨٧٤) مؤرخ كبير أحيى بتاريخه الشعور الوطنى. وكان فيه مصوراً حر الفكر . وما أراده « تيرى » ولم يتوافر عليه حققه ميشيليه بعبقرية وقوة لانظير لها .